قصة

فقدان

نور هشام عليان

2024

الإهداء

إليك . . .منقذي

إلى والدي شفاه الله وعافاه ، وعائلتي أذهب الله عنهم كل بأس

إليك أختي الغالية ، الأقرب لقلبي جمانة عليان

إلى صاحبات الرّوح ورفيقات الدّرب من آمنتا بقدرتي دوما : دانيا العواودة وأسماء الأطرش

إلى الجميلة المدهشة معلمتي ومرشدتي من أخبرتني كيف أتعلم أن أجعل نفسي أولوية فقررت أن أنقل

هذه الفكرة للجميع المرشدة التربوية بنان العكايلة

إلى من أضاعوا أنفسهم في الحياة ليمنحوا معنى لآخرين . . .

لتتعلم أن تجعل نفسك أولوية

على صوت الموج المتضارب، تجلس متقوقعة تغرز قدميها في الرّمال الدّافئة فينساب لداخلها بعض الدفء، تناظر البحر المزمجر في غضب وكأنما فكرها غرق بين الأمواج، وكلما حاول النهوض منها بعنفٍ ردمته، يراقص الهواء شعرها ، والنسيم يقبّل ملامحها معتذرا لها عن كل هذا الفراغ الذي تسبب به العالم ، وبينما هي غارقة في سهواتها يناديها صوت من الخلف فلا تسمع منه إلا أزيزا خافتا وكأنما سيطر الموج على مسمعها : يا آنسة . . .المعذرة يا آنسة ؟

لتنتهي يده على كتفها في محاولة لانتشالها ، فيضربها الخوف جرّاء مباغتته لها لترد بقلق :من أنت ؟

وسرعان ما تحوّل قلقها لموجة غضب عارمة فتصيح: وماذا تريد مني ؟

يجيبها بتلعثم: حقيبتك . . .حقيبتك قد أخذتها تلك السيدة

وأشار نحو امرأة تبدو في السبعين من عمرها ، محنية الظهر، وشجنُ الزمان قد ترك تقاطعات في ملامحها ، حفر العديد من الزّقاق الخالية من الحياة ،بدت لي مطفأة وكأنها قنديل فانٍ ، ومهترئة كالثّوب

البالي، أعادني صوته تارة أخرى للواقع: أليست تلك حقيبتك ؟ رأيت السيدة تميل بجوارك وتأخذها .ثم تنصرف فقلت في نفسي لأنبهك حتى أطفئ ضميري لو حاول أن يلومني

فشكرته ثم أخذت أمضي وعيني مصوّبة على السيدة، تخطوا وكأنها تائهة مسيّرة لا مخيرة، ومن المستحيل لمثل حالها أن يكون القصد سرقة، فالسّارق يهرع ويهرول بعيدا . وهذه السّيدة هائمة وكأن الدّنيا تقودها لوجهة معينة، فأسرعت من خطواتي ووقفت أمامها ، ونظرت في عينيها فرأيتهما خاليتين من المعنى ومن الرّغبة في استكمال العيش، ينتظران الموت أن يأتي فيأخذ صاحبتهما ولكن الموت يأبى . . . فلا يزال هناك وقت عليها أن تعيشه، تجاهلتني وكأنني حجر تعثّرت به وتابعت مضيها ، فتبعتها وبدأت أسير محاذاتها بدا لي وجعها مألوفا ، فشعرت ببعض الأُنس .

لست أعلم كم تبعتها ولكننا توقفنا أخيرا عند مقعد مزويّ، وعندما اقتربت منها انهارت على ركبتيها ، وبدأت الدموع تتجمع في مقلتيها وتتدفق كنبع لاقى منفذا لتوُّه، احتضنتها بيدي وجلست بقربها ، فلمعت هنا عيناها وسألتني قائلة: حنين ؟

فأومأت نافية، فعادت تبكي وتحتضن حقيبتي، وتنظر للمقعد وتنادي حنين بكل ما تملكه من حزن مكبوت دفين .

وبدا لي بأن حنين ابنتها وأنها ولسبب ما قد فقدتها ، وابتسمت بوهن متسائلة كيف يختفي الناس بسرعة البرق وكأنهم ما كانوا ، وكأن النّسيان يضرب الأماكن التي قد عملوا بها ودرسوا فيها ومروا منها ، ويظل الأسى وحده عميقا ينهش أحبتهم ! ؟

حتى قلت: توفي والديّ قبل شهر من الآن ، وكأنما قولي هذا قد أدهشها لالتفت لي، وأردفت: عندما حانت لحظة الوداع ورأيته مغلّفا بالأبيض النقي منتقلا إلى مثواه الأخير، كانت فرصتنا لنصنع آخر ذكرى معه ونحفظ ملامحه حتى نستعين بذكراها عندما يجور الوقت وتتدفق الأيام وتكثر المشاغل ولا شيء . . . لا شيء ينسينا مرارة فقده ولا مواساة تهونه، فنذكرهم وكأنه لا سبيل لنا لنحيا إلا على آثارهم، كنت أحاول جاهدة أن أحفظ ملامحه، أنظر مطولا في عينيه في أنفه في حاجبه الكثّ في شاربه في ذقنه في كلّه، حتى رأيت أمي أمامي تحتضنه وترتجف، حاولت تهدأتها ولكنها ظلت كذلك حتى ابيضت عيناها ثم ذهبت هي أيضا لملاقاة أبي،الذي لم تفارقه سوا دقائق فقط.

تنهدت وقد احتجزني ذات الموقف، واخذت فكر كم يا تراه قد مضى على وحدتي، وصابني الرّعب عندما تذكرت الحادث وكأنه قد حدث البارحة وهو قد مضى عليه أربع سنوات.

التفتت الي أمسكتني من كتفي وحركتني قائلة: حنين حنين . . . ومن ثم صرخت حنين . . . حنين أفزعتني فقلت لها : أنا لست حنين .

فلم تجب ،ظللّت هكذا حتى أخذت بيدي ومضينا للمجهول معا ، تبين لي بعد فترة أنها تقودني لمنزلها حاولت التملّص لكنها كانت تستمر بالصّياح كلما حاولت الابتعاد . . . فبقيت.

ناديتني مرة أخرى: حنين!

فأجبتها :نعم؟

وكأنما تبدل وجهها ، ارتسمت ضحكة عميقة على محياها ، وأخذت تقبلّ وجنتي تباعا ، وتقول: أخيرا عدت . . . فرحت لفرحها ، وضحكت لضحكها ، كنت في صدمة من بعد وفاة والدي، ولم يبقَ لي عائلة ،حيث أنني وحيدتهما ، والان . . . الان بعث الله لي عائلة جديدة على سبيل الصدفة، توالت الأيام، كنت مجبرة على البقاء لدى السيدة، في ليلتي الأولى نمت في فراش المدعوة حنين بعد أن اقتادتني والدتها لغرفتها ، واضطررت أن أرتدي من ثيابها فما كنت ارتديه لم يكن يصلح للنوم ،استيقظت على صوت الخالة وهي تحتضني وتبكي تصيح حمدا لله لعودتي وأنا التي فقدتني لأعود

إليها ، نسيت كينونتي لتتذكر هي ابنتها ،هل تعتبر هذه تضحية ؟ أيصح لأحدنا أن يفتدي الآخر بنفسه ؟

توالت الأيام تباعا وأنا . . .حنين، حنين ابنة روعة و وحيدتها ، وعامت بمرور الأيام من سكان الحي ذاته أن خالتي روعة قد توفي زوجها وهي في ريعان شبابها وأنها عزمت أن تجعل من حنين إنسانة . مثالية يطمح الجميل لأن يكون كمثلها ، وبالفعل كانت حنين فتاة هينة لينة تمضي في حاجة الناس

يوم بعد آخر كنت أنسى من أكون، وأهرع لأسال الاخرين عن صفات حنين وأقلدها ، وعندما قررت أن أرتب الغرفة غرفتي الجديدة عثرت في أسفل الدرج على صورها كان البوما تزينه أزهار البنفسج ويبدوا أنه لونها المفضل فكل أركان الغرفة بنفسجية اللون، تنهدت وبدأت أتصفحها ، كانت هي وهي في صغرها تقف بجوار والديها وتبتسم، أخرى في عيد ميلادها لعامها الثالث، ترتدي ثوبا زهري اللون مرصع بالورد وقبعة عيد الميلاد وتقف أمام الكعكة تأهبا لإطفاء الشموع، قلبت الصفحة فرأيتها في الروضة أول يوم تخط فيه قدميها المدرسة وفي الجهة المقابلة صورة تخرجها ،وهكذا تباعا غرقت في تقليب الصور ، أرقب كل التفاصيل بتمعن واهتمام شديدين ، وأصبحت بالفعل بعد .هذا الألبوم أتقمص طريقتها في ارتداء الثياب تسريحة شعرها وكل تفاصيلها

في بداية أيامي التي كنت اقطن فيها مع الخالة روعة رأفة بجالها ، كنت أتردد في الإجابة عندما تناديني حنين ولكن الان كلما نادت حنينا هببت واقفة لإجابتها ، حنين هي أنا . . . هكذا أصبحت أقول لنفسي كلما رأيت انعكاسي في المرآة ،للحد الذي بدأت أفقد به كينونتي شيئا فشيئا ، كانت حياتي قد بدأت تصبح روتينية، استيقظ أعاون أمي روعة وأخرج للسوق لأجلب مقتنيات اليوم و من ثمّ أجلس على الشاطئ طويلا، فأرمي نظري مداد الأفق، ولكن ويوما ما وفي اثناء ذهابي للسوق، سمعت فتاة تصرخ باسم: ريتال، التفت إليها فبدت وكأنها تتوجه نحوي، لكنني نعتها بالبلهاء في عقلي وتابعت المضيّ، حتى استقرت يدها أخيرا على كتفي، قائلة :ريتال أين كنتِ ؟

ثم بدأت بالبكاء واحتضنتني، فزجرتها وتراجعت للخلف خطوتين، وقلت: أمجنونة أنت ؟ من أنت ؟

طغت الدهشة على ملامحها وقالت: ألم تتعرفي علي ؟

قلت: لا ،واسمي هو حنين أنا حقا لا أعرف من تكون ريتال التي تتحدثين عنها ، واعتذرت منها وتابعت المضي ،لكن شيئا ما في داخلي ارتجّ، ركن قصيّ في عقلي لملامح هذه الفتاة تأثر، فالتفت لأراها كانت متسمرة في مكانها ، وكأنه تلقت خيبة تفوق استيعابها وبصيرتها ، توقفت رمقتها قليلا،

بدأ رأسي يؤلمني، وتذكرت صراخ أمي روعة علي إن تأخرت، وكلما فعلت ذلك رأيتها تجوب الشوارع تبحث عني وتبكي مخافة ضياعي، عدت للمنزل وبالفعل وجدتها قلقة، ترتدي آخر ثيابها لتبدأ عملية البحث، اعتذرت منها وصعدت لغرفتي أغلقت الباب وانهرت على الأرض في منتصف الغرفة، أشعر بضياع تام ينهشني، صور وذكريات لأشخاص تلتهمني، وفتاة فتاة قد ظهرت صورتها في مخيلتها تدعى ريتال ذات الاسم الذي سمتني به الفتاة التي التقيتها في السوق، تحتضن تلك الفتاة وتضحكان بمرح، أيقظني من غفلتي طرق الباب المستمر كانت تصرخ بخوف: حنين هل أصابك مكروه ما ؟ افتحي الباب. . . حنين.

فنهضت وفتحته، رمقتها بعينين خاويتين من المعنى، جلّ ما فيهما الضيّاع والتشتت، فاحتضنتني وأخذت بيدي لأسفل جلسنا على مقعد في منتصف حديقتنا المتواضعة، وسألتني وبدا أنها شاردة: ما الذي يؤرقك ؟

فأجبت: لا أعلم . . . لا أعلم شيئًا ولكنه شيء ما هنا ، وأشرت لعقلي، وتابعت: شيء ما هنا يلتهب ،ويؤلم وكأنه ينوح طيلة الوقت، أنا غارقة في فكري ، وكأنما – وترددت لوهله ثم قلت – وكأنما أضعت نفسي ، أمي أنا لست أذكر شيئًا عن ماضي ، لكنني بدأت أحلم من فترة بكوابيس تطاردني ، صورة لشخصان يزعمان أنهما والدي ، وصحب يتدعون صحبتي ، أنا تائهة تائهة جدا .

فقالت : أنت حنين ، ابنتي التي ربيتها وكبرتها ، وستظلين هكذا دوما .

ابتسمت وربت على يديها ونهضت لأعود لغرفتي ، بدا لي المكان غريبا عني ، تمشيت فالغرفة وكأنما استكشفها ، فرمقتني بالمرآة ، لم تعجبني تسريحة شعري ، ولا الشامة في خدي التي اعتدت وضعها لتبدوا كذلك وكأنما فعلت هذه الفكرة في ساعة لا عقلانية ، وكأنني لم أكن واعية بها ، شيء ما تغير ، تركت لشعري المربوط العنان ، فتطايرت خصلاته متراقصة على سمفونية الريح التي يحبها ، وكأنه كان مشتاق لهذا ، وكأنما كان ينتظر هذه اللحظة .

وأخذت أفكر طويلا ، من أنا ؟

وما الذي غيرني ؟

وعصفت بي الأفكار حتى أخذني النوم ،فغرقت فيه عميقا ، ورأيت تلك الفتاة التي لاقتني في السوق ، كانت تتحدث إلي ولكن حديثها لم يكن واضحا ، لم أكن أسمعه ، وبدا لي أن عدم سمعي يغيظها لكنني حقا لا أسمع . واستيقظت على صورتها وهي تبتسم .

مضيت في يومي المعتاد ، أعددت الفطور وأيقظت أمي التي ما إن رأتني سألتني حول تسريحة شعري الجديدة ورفعته مجددا ، أخبرتها أنني أرى شعري مفرودا أجمل ، لكنها أبت وصرخت وأصّرت،

فخنعت ورضيت جلست إلى جوارها الذي لطالما خيّل لي بأني لقيت الدفء فيه ، اليوم هو بارد ، أشعر ببرودته تنساب لداخلي ، وما إن حان وقت الذهاب للسوق ، حتى نثرته مجددا ، ومضيت ، كنت أرمق العابرين لعلي أراها ، تلك الفتاة التي نادتني ، أشعر وكأنما خلفها سرا ما ، وكأنما هي مقرّبة لقلبي ومألوفة لذاكرتي . . .

لكن للأسف محاولاتي في البحث ذهبت هباء منثورا ، عدت للمنزل وأنا أشعر بالخيبة ، وكررت المحاولة في اليوم الذي يليه والذي يليه ومضى أسبوع على بحثي المتواصل عنها ،وبلا أي نتيجة تذكر ،حتى أخذت أقسم بجنوني ، وبأني أتخيل الأحداث التي لا صحة لها ، والأشخاص الذين لا وجود لهم ، وذهبت لطبيب نفسي حدّثته عن شعوري المتواصل بالتشتت والضياع وعن الأحلام والكوابيس وأنني لا أذكر ماضي ، لا أرى إلا صورا قد التقطت الي ، صورا قريبة مني ولا تشبهني ، ونظرات سكان الحي الغريبة التي يتهمونني بالجنون كلما رأوني وأمي ، وأخبرته عن أخر موقف لي في السوق وفتاة السوق التي نادتني بغير اسمي فأخبرني بأن هذا نوع من الهلوسات البصرية والسمعية ، أعطاني دواء ما ، وطلب مني أن اعود مجددا ، لم أقتنع بما قاله ، فأخذت طريقي قاصدة البحر مجددا ، رميت الدواء في عمقه ، وأخذت أصيح : يال التفاهة ، يال التفاهة . . . ما شاهدته ليس محض هلوسة ، ولست متأكدة من كونه حقيقة .

سمعتها تنادي : ريتال ريتال ، فالتفت علمت أنها هي من صوتها ، ذات النداء وذات النبرة فالتفت ، كانت تجلس حيثما أعتدت الجلوس ، تنزع حذائها وتغرس قدميها في الرمال الدافئة ، دعتني للجلوس ، فتقدمت طواعية ، جلست وفعلت مثلها ، قلت : كنت أبحث عنك

ردت : وأنا أيضا ، صدمت عندما لم تعرفيني ، كما صدمت عندما تركت المنزل دون أن تطلعيني على وجهتك أول مرة .

قلت متسائلة : أترك المنزل !

أومأت وأردفت : ألا تذكرين ؟

حركت رأسي نافية ، فرأيت الحزن قابعا في عينيها وقالت : لقد كنت مسافرة ، تعلمين أن والدي أصرا على أن أشاركهما رحلتهما ، وفعلت ، عدت فعلمت بأن والدك قد توفى وأن والدتك قد لحقت به بعد ساعات ، هرعت لمنزلك للبحث عنك ، فلم أجدك ، سألت سكان الحي ولم يكن أحد قد رآك ، قلت في نفسي بأنك قد تكونين سافرت رفقة أحد أقاربك ، لكنني أذكر أنك حدثتني جيدا حول عدم معرفتك لهم ، وأنك لا تعلمين شيئا عن أي أحد منهم ، فحزنت ، بحثت عنك طيلة

السّنوات الماضية ، فلم أجد لك أثرا ، آخر مرة قال لي عامل هنا أنه رآك تجلسين في هذا المكان ، وأن عجوزا قد سرقت حقيبتك فخفت كثيرا .

أخذت تبكي وتكمل: خفت أن تكوني قد مت ، وأنها تنتمي لتنظيم ما من اللصوص والمغتالين خفت .

مسّدت بيدي ظهرها وقلت :اهدئي . . . ثم رمقت البحر طويلا ، حتى استجمعت نفسها وقالت :

أين كنت طوال هذا الوقت ؟

فقلت متجاهلة سؤالها : هلَّ تخبريني باسمك ؟

فقالت بتلقائية : نغم . . .أنا صديقتك المقربة ،ألم تذكريني بعد ؟

قلت لها متجاهلة أيضا ونظري للبحر : نغم ما اسمي أنا ؟

فقالت ببلاهة :ها

أعدت السؤال فأجابت :ريتال . . .اسمك ريتال

قلت لها : هلّ أخذتني لحيث كنت اسكن كما تزعمين ؟

فوافقت ولكنها أخبرتني أنها لا تملك المفتاح فقلت لها من المؤكد أنه لدي في المنزل ، إن كان ما تقولينه حقيقة فسأبحث عنه ولنلتقي غدا بنفس هذا الوقت وفي هذا المكان ، وسرعان ما قبلت عرضي ، عدت للبيت ، وصعدت الدرجات أسابق الزمن ،دعتني أمي للطعام فرفضت تناوله وأغلقت الباب خلفي ، وطلبت منها ألا تزعجني أبدا .

جاهدت نفسي ألا أحنّ لصوت بكائها واستجيب لتوسلاتها التي تدعوني لفتح الباب ، وفتحت الخزانة ، الآن سأباشر البحث لأعلم حقيقة ما تزيفه نغم أو ما تزيفه أمي روعة ، ولأعلم من أكون أنا .

حقيبة تلتها حقيبة بحثت بدقة شديدة ولم أترك شيئا ، ولم أصل لأي مفتاح ، ولا أي أثر ،فضحكت وقلت : لقد جننت تماما ، لقد جننت بحق ، يبدوا أن الطبيب قد كان صادقا بالفعل ، أنا أتخيل أشخاص لا وجود لهم وأحداث لا صحة لمنطقها ،فتحت الباب فوجدت أمي نائمة على عتباته ، وكم لمت نفسي على فعلتي بها ، أيقظتها فبكت بين ذراعي ، هدأت من روعها وساعدتها للذهاب لغرفتها ،بقيت لجانبها حتى غفت مجددا ، وعندما أردت أن أنهض لفتتني حقيبة حمراء موضوعة على الكرسي المجاور للسرير ، حملتها وقد شعرت بشيء من الحنين ، وأخذتها لغرفتي ، فتحتها فعثرت على محفظة ، فيها صورتي وهوية لفتاة تدعى ريتال ، وعطر رائحته أعادتني ألف ميل للوراء ، ومفتاح ، أمسكته بفرح ، رفعته وكأنما قد حصلت على كنز ثمين ، ولم أنم ، لم يغف لي جفن تلك الليلة ،

وكنت قد ذهبت للشاطئ قبل الموعد بساعتين ، فأتت نغم قبل الموعد بساعة والتقينا ، أريتها المفتاح ، حملته وتعرفت عليه أخبرتني أن علّاقة المفتاح هي نفسها ، ومن ثم مضينا معا ، عندما بلغنا حديقة المنزل ، كنت على مشارف التراجع ، صحت في نغم أنها مجنونة وأخبرتها أنها ما هي إلا خيال صنعته أنا ، فبكت وأمسكت ذراعي راجية ، قالت لي : سأصف لك أركان المنزل لتتعرفي عليه قبل دخولنا إليه ،وبالفعل بدأت بسرد التفاصيل وكنت أدقق في كل كلمة تقولها لأمحصّها ، أدخلت المفتاح في الباب ، حركت القفل ففتح ، وضعت يدي على مقبضه وضغطت عليه بخفة فاستجاب لي وكأنه يرحب بحضوري ، دخلت للمنزل ، الغبار يجتاح المكان ويستعمره ، وأخذت أمضي حتى أني نسيت وجود نغم ، التفت لكل الزوايا أتلمس المقاعد والصور ، صوري . . . وذات الاثنان اللذان أحلم بهما دوما ، وصور أخرى كثيرة تجمعني بنغم ،أخذتها معي أثناء جولتي التعرفية ، وكم هالني دفء المكان ، ومن ثم أصابني صداع شديد ، ودارت بي الأرض ، ارتفعت أمواج الذكريات ، الحقيقة ، كل الحقيقة . . . فسقطت مغشية علي .

عندما استيقظت ، كنت مثقلة وكأنما أحمل جبالا في مقلتاي ، كان سقف الغرفة أبيضا وصوت نين خفيف يخز أذناي ، علمت حينما التفت أني في المستشفى ، كانت هناك الكثير من الاسلاك التي تربطني ،وقطرات المغذّي تنساب بعناية ورزانة وانضباط مطلق ، ونغم . . . نائمة على كرسي بجوار

سريري ، ابتسمت لرؤيتها وسرعان ما تذكرت من هي وتذكرت تتابع الاحداث فساءت حالتي وارتفع طنين الجهاز ليصبح إنذارا ،رأيت بعدها نغم تبكي والكثير من الأطباء يتجمهرون حولي، ثم بدأ الضباب يلتهم كل شيء حتى غابت الرؤية تماما .

بعد مرور ثلاثة أشهر ، فتحت عيني لأول مرة ، وكم كانت فرحة نغم بذلك عارمة ، وبعد شهر من المتابعة خرجت من المستشفى وقد أصرّت نغم وعائلتها على أن أقيم لديهم حتى أمثل للشفاء ، وبكثرة إصرارهم استجبت أخيرا ، كانت أيامي مع نغم دافئة ، تحدثني فيها عن ذكرياتنا ووالدي ، وكانت ذاكرتي تضيء شيئا فشيئا ، وتذكرت السيدة روعة التي كانت أم لي لمدة ليست بالهينة ، أخبرت نغم برغبتي في زيارتها رفضت في البداية ولكن مع إصراري ومحاولاتي وبعد استشارة الطبيب الخاص بي وافقت ، وذهبنا معا ، كنت وكأنما لا أصدق ما مررت به ، أحقا كنت مغيبة لهذه الدرجة ، وماذا حدث للسيدة روعة ؟ ماذا سيكون قد حدث لامرأة طاعنة في السن وتعاني من مشكلات نفسية إثر وفاة ابنتها ؟

طرقت الباب فلم يجب أحد ، وعندما فقدت الأمل في أن يرد أحدهم ،طرقنا باب الجيران نسلهم ، فقالت لي إحداهن أنه وبعد اختفائي أخذت تمضي في الشوارع صارخة حنين . . .حنين ، حتى توّفت .

شعرت بالأسى ، فلم تكن تقصّر في احتضاني . . . عيبها الوحيد هو أنها عندما فعلت ذلك جعلتني أنسى من أكون أنا .

وعلمت يقينا أنه ينبغي علي أن ابني نفسي وأرممها ،وأن لا أسمح بزعزعة كياني واستغلال المواقف الهشّة التي مررت بها لصالحه ،كم يصبح أحدنا مغفّلا ،عندما تواجهه في ضعفه ،وكم يكون سهل الانجراف فيميل حيثما تعصف به الريح .

انتهت